بلاد " الدّوارة" ومجالها الجبلي: آخر ملاذ لقبيلة الهمّامة سنة 1750

عثمان البرهومي (*) [1]
جامعة صفاقس– تونس، barhoumioth66@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/08/16 تاريخ القبول: 17 /2020/08 تاريخ النشر: 2020/09/19

Résume

Ed-Douarah est le nom d'une plaine située à environ 15 km à l'est de la ville d'*Oum el Araïs*, dans le sud-ouest Tunisien. Cette plaine est entourée par des reliefs montagneux de différentes altitudes. La plaine de *ed-Douarah* est marquée par une dépression fermée dite *Garaet ed - Douarah.*

Le bassin versant de *Garaet ed Douarah* est entourée de toute part par des oueds qui font partie du système drainé vers *Chott el Gharsa* . La présence fréquente de l'eau (oued et points d'eau) et le relief diversifié sont tant des facteurs qui attirent les hommes depuis la Préhistoire.

La présence humaine dans la région d'*ed-Douarah* remonte à la préhistoire. Selon l'état actuel de la recherche les plus anciennes occupations humaines préhistoriques dans la région sont attestées par des sites Capsiens connus sous le nom de *rammadiyat* (pluriel de *rammadiya*).

La région *ed-Douarah* est devenue plus célèbre à la deuxième moitié du XVIIIe siècle, après une confrontation militaire sanglante précisément en 1750 entre les *Arouchs* de tribu des Hamamas et les Mehallas de Bey Ali Bacha qui à régné entre 1735 et 1756. Son règne

(*) المؤلف المرسل: عثمان البرهومي: barhoumioth66@gmail.com

était marqué par plusieurs affrontements militaires contre les tribus Husseinites et le pouvoir local, dont l'objectif la centralisation du pouvoir et mettre fin à tout forme de rebelle.

Abstract:

Ed-Douarah is the name of a plain located about 15 km east of the city of Oum el Araïs, in the south-west Tunisian. This plain is surrounded by mountainous terrain field of different altitudes. The plain of ed-Douarah is marked by a closed depression called Garaet ed - Douarah.

The Garaet ed- Douarah watershed is surrounded on all sides by wadis valleys that are part of the drained system towards Chott el Gharsa . The frequent presence of water (wadi and water points sources) and the diverse reliefs are so many factors that have attracted people since prehistory.

The human presence in the ed-Douarah region dates back to prehistory. According to the current state of research, the oldest prehistoric human occupations in the area are attested by Capsian sites known as rammadiyat (plural of rammadiya).

The ed-douarah region became more famous in the second half of the eighteenth century after a bloody military confrontation, precisely in 1750 between the tribes Arouchs of the Hamamas and the mehallas of Bey Ali Bacha who reigned between 1735 and 1756. His reign was marked by several military clashes against the Husseinite tribes and local power, the aim of which was to centralize power and put an end to all forms of rebellion.

Keywords: ali bacha, tunisie

1. مقدمة:

مثل فعل التمّرد والعصّيان بالأوساط القبليّة والمجالات البعيدة عن المركز خلال القرن الثّامن، ظاهرة تستدعي الوقوف عندها وتحليل أسبابها وتداعياتها، نظرا لتكرّر هذه الحركات الاحتجاجيّة التي ارتبطت بتحوّلات سياسيّة وأزمات اقتصاديّة كان لها أثر كبير على الإجراءات الجبّائية المتّخذة خلال هذه الفترة.

ويعدّ العصّيان والتمّرد في قبيلة الهمّامة أمرا مخصوصا، لأنّه يرتبط بصفة أساسيّة بالموقع الجغرافيّ لعروش القبيلة بمناطق السّباسب العليا والوسطى وحول الواحات وبالجبال، وما صاحب هذا التوزّع العشائريّ من سيطرة شبه تامّة على مسالك المبادلات الدّاخليّة الرّابطة بين الواحات الجنوبيّة ومحيطها المجاور.

ورغم أنّ المصادر الأدبيّة لا تمدّنا بتفاصيل كثيرة حول "تمرّد الهمّامة" سنة 1750 ولا تسعفنا بتفاصيل عن تاريخ الحركة الاحتجاجيّة القبليّة ولا عن أسبابها الحقيقيّة أو الأطراف المشاركة فيها، فإنّ هذه المصادر تؤكّد على النّتائج التي آلت إليها عمليّة الرّدع العسكريّ التي قادها الباي علي باشا (1735 – 1756) مباشرة بعد انفراده بالحكم. حيث تعتبر واقعة "الدّوارة" لسنة 1750م، والتي تمكّن على إثرها على باشا من إخضاع قبيلة الهمّامة، ذات الرمزيّة الكبيرة والتي تقدّمها المصادر الرسميّة من كتابات المؤرخين والأدباء والشّعراء الذين عاصروا الحدث أو من أخذ عنهم، على أنّها أهمّ إنجاز سياسيّ وعسكريّ للباي علي باشا. حيث يقول ابن أبي الضّياف: "ومن أخبار علي باشا الدّالة على بعد صيته، إيقاعه بالهمّامة"[1].

وعلى هذا النّحو فإنّ الفرضيّات التي نعرضها في مقالنا هذا حول "نكبة الهمّامة" و"بلاد الدّوارة" تطمح إلى إرساء مناقشة مثمرة وعميقة بين الباحثين حول علاقة السّلطة المركزيّة بالمجالات الطّرفيّة، والدّفع بهم إلى البحث عن مصادر أخرى لم يتم التعرّض إليها، مثل الشّعر والرّوايات الشّفويّة والأمثال الشّعبيّة، تلك التي يمكن أن تُغْني معارفنا عن تاريخ

هذه المجالات القبيلة والجباليّة، التي لا تزال ديناميكيّتها العميقة مجهولة لدينا إلى حدّ اليوم. خصوصا وأنّ تعريف الجبل والمجال الجبليّ بالبلاد التّونسيّة يبقى غير نهائيّ. فهل هو مجال للاستقرار؟ وهل هو نمط عيش معيّن للسكّان فقط، أم هو مجال للهروب والانزواء والتخفّي والاحتمّاء من الخطر الدّاهم خلال الثّورات والأزمات؟ أم مجال يجمع بين الوظيفتين ويلائم بينهما معا؟ وما هي الخصائص المميّزة "لبلاد الدّوارة" ومجالها الجبليّ؟ وإلى أيّ مدى مكّن هذا المجال الهمّامة من الاحتماء وقلب موازين القوى لصالحهم في مواجهة علي باشا باي؟

2. أوّلا: خصائص المجال الجبليّ لأرض "الدّوارة":

تعرف قديما "ببلاد الدّوارة"، وتعود التّسمية إلى خصائصها الطّبيعيّة والطّبوغرافيّة التّضاريسيّة، فهي دائريّة الشّكل، إضافة إلى أنّها بمثابة منطقة منبسطة ومحاطة بالجبال وهي محّصنة ومحميّة طبيعيّا.

1.2. مجال حصين طبيعيّا ويوفر الحماية القصوى

تشّكل منطقة "الدّوارة" مجالا حصينا ومنيعا، حيث تحيط الجبال الوعرّة بالمكان من كلّ الجهات وهذا ما جعل إمكانيّات البلوغ إليه صعبة للغاية، إذ نجد أوّلا ومن الشّمال والشّمال الغربي جبل "بورّملي"، الذي يعتبر ثاني قمّة من حيث الارتفاع بالمنطقة (1056 متر) بعد جبل عرّباطة (1165 متر)، ومن خصائص هذا الجبل الارتفاع والكثافة، فهو بمثابة جدار يصعب تجاوزه بسهولة، يمتدّ من الشّمال الشّرقي إلى الجنوب الغربيّ. ولا وجود لأيّ واد أو طريق يشقّه من النّاحيتين. وفي نفس الجهة نجد سلسلة متلاصقة من الجبال أقلّ ارتفاعا ولا تتجاوز 900 متر، وهي:

. جبل "السّطحة السّودة" (709 متر)، و"الشنّوفيّة" و"الجّلابيّة" و"باللّيلْ" (621 متر) من جهة الغرب.

. جبل "السّطح" (517 متر) من النّاحية الشّرقيّة. ويلاصقه أو في الحقيقة هو امتداد لجبل "العلي" أو الجبل "العّالي" حسب التّسمية المحليّة، ويتجاوز ارتفاعه 800 مترا. وأعلى

قمّة به هي قمّة "كاف النّسُور" (809 متر). ويفصل بينه وبين جبل "بورّملي" ممرّ يصعب التنقّل عبره بالنّسبة إلى الدّواب أو الفرق العسكريّة المحمّلة بأسلحة ثقيلة.

. جبل "كاف شفّاير" الواقع بالجنوب والذي يحدّ المنطقة، ويصل ارتفاعه إلى 575 متر.

فأمّا من جهة الغرب، فتنفتح المنطقة على هضبة أمّ العرائس والرّديّف التي تعتبر امتدادا طبيعيّا لها. وهذا ما يجعل المنطقة محصّنة ومغلقة وليس لها غير منفذ واحد من جهة الغرب، وبوجود هذه الجبال يمكن القول إنّ المنطقة توفّر إمكانيّات استراتيجية حقيقية للاحتماء من هجوم الأعداء أو التصدّي له. كما تحتوي الجهة على بحيرة طبيعيّة تعرف بـ "قرْعة الدّوارة"، التي تتجمّع بها مياه التّساقطات والسّيلان من الجبال المحيطة بالمنطقة. كما تصبّ بها بعض الأودية مثل واد "النّبشْ" وواد "اللُوزّة".

وأمّا بقية الأودية الكبرى التي تحيط بمنطقة "الدّوارة" من ناحية الشّرق، فهي: واد "الكبير" الذي يعتبر واد " بياش" امتداد له. وواد "المالح" الذي يصبّ في سبخة "المالح". بينما يظهر من ناحية الغرب واد أمّ العرائس الذي يصل إلى "الثّالجة" وواد "الفّريد" الذي يصل إلى أمّ "الخنْقة" ونادرا إلى شطّ "الغرّسة".

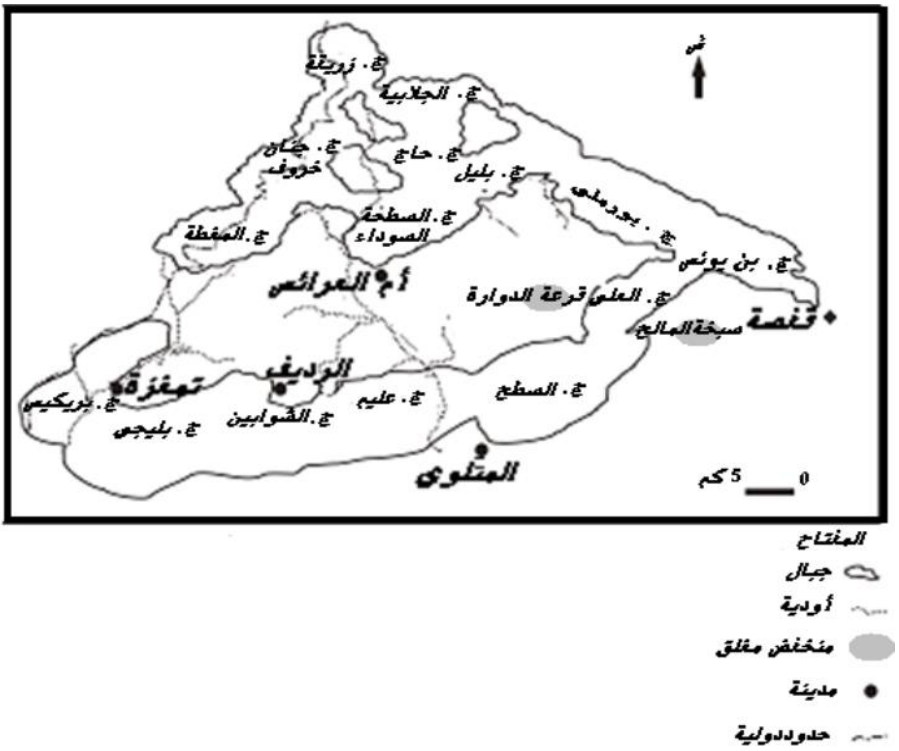

الخريطة الطبيعية لمنطقة "الدّوارة"[2]

علاوة على ذلك فإنّ "بلاد الدوارة" مجال غنيّ بالمياه الجوفيّة حيث نجد بها أخاديد عديدة بالجبال والهضاب المحيطة بالسّهل، وأهمّها الأخدود الذي يفصل بين جبل "بورملي" وجبل "عتيق".[3] ومن ضمن مصادر هذه المياه نجد عين "همّيميجة" وعين "خيرة" وعين "عتيقْ" وعين "السّراقيّة"[4]. ولاشكّ فإنّ تعدّد مصادر المياه وتنوّع النّضاريس بمنطقة "الدّوارة" وتوفّر سبل العيش بها، تفسر إلى حدّ بعيد انجذاب الإنسان إليها منذ عصور قديمة جدّا.

2.2 . الخصائص البشريّة والسّكانيّة لبلاد "الدّوارة":

يعتبر الحضور البشريّ وتعمير منطقة "الدّوارة" والجبال المحيطة بها قديما جدّا، حيث تمّ العثور بها على مواقع للحضارة القبصيّة وهي معروفة بالرّماديّات بكلّ من جبل "عتيقْ"[5] ،

و"واد النّبش" و"واد الأخسّاف"[6]. إضافة إلى العثور على مقابر جلمُوديّة بجبل "السّطح"، وهذا ما أكّده الباحث محمّد السّعيديّ في دراسته لمنطقة أمّ العرائس والرّديّف وتمغزة والمتلوّي بالجنوب الغربيّ للبلاد التّونسيّة[7]. كما كانت المنطقة مجالا لتركّز بشريّ كثيف خلال الفترة الرّومانيّة حيث نجد بها بقايا لحجارة وآثارا بهناشر "الدّوارة" على غرار هنشير "الصُمْعة" وهنشير "القّلال" وهنشير "رحِيلة"[8].

وخلال العهد الوسيط المتأخّر والحديث، اتّخذت عروش من الهمّامة وهم "أولاد باللّحسن" و"أولاد سلاّمة" المنطقة مجالا للتركّز خلال فترة محدودة من السّنة، حيث كانوا يمارسون الانتجاع والتنقّل لتربية الماشية بالجبال المحيطة بمنطقة "الدّوارة" بين جبل "بُورّملي" من النّاحية الشرقيّة وجبل "الزرّيقة" غربا وصولا إلى تبسّة. ومن الجنوب الغربيّ بالسّهول والمنخفضّات وصولا إلى "تمغزّة" و"ميداسْ". حيث تمّ العثور بها لاحقا على عائلات تنحدر من قبيلة الهمّامة، وصلوا إليها واستقرّوا بها بسبب تداعيات واقعة 1750 بعد أن شردّهم علي باشا عن أراضيهم.

ولعلّ ما جعل من المنطقة محلّ اهتمام السكّان ومجال استقرارهم الصّيت الذي وصل إليه عدد من الأولياء وأصحاب الكرامات، على غرار الولي الصّالح **علي بوعبيد بن علي بن حسن عكريم بن مبارك**. ولا تزال تحتفظ الذّاكرة الجمعيّة بالمنطقة أنّه قدم من السّاقيّة الحمراء سنة 876هـ / 1462 . 1463م. والوليّ **سيدي سليمان بن إبراهيم بن أحمد بن ذياب بن حسن بن مبارك بن عبد الله بن تليل** الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السّادس عشر. وقد تحصّنوا بمنطقة "الدّوارة"، ومنها مارسوا دعوتهم للتصوّف والتديّن الطّرقيّ بالجهة ومنها انتشر لدى عروش الهمّامة ولدى الفراشيش، الذين لا يفصل بينهم وبين المنطقة إلاّ جبل "بورّملي" والواد "الكبير".

3. الجبل خيار استراتيجيّ للقوى المحليّة المعارضة للحاكم:

يكتسي الجبل أهميّة بالغة في تحديد طبيعة وأوجه أنماط الحياة لدى المجموعات البشريّة المستقرّة به، وسلوكهم الاجتماعيّ والسّياسيّ والاقتصاديّ. كما يمكن أن يخلّد معارك وانتصارات أو هزائم هذه المجموعات خلال فترات من تاريخها.

1.3. الجبل هاجس السّلطة وملجأ الثوار المنيع:

شكل الجبل ببلاد المغرب عامّة وبالبلاد التّونسيّة خاصّة مجالا حيويّا، سواء أكان مواقع لجوء وحماية وانعزال أو موطن استقرار وضعن دائم اختاره أهل تلك البلاد لتلاؤمه مع نمط عيشهم وتوافقه مع أنشطتهم الاقتصادية التي تعتمد الرّعي والترحّال. ولقد ظل هذا النّمط قائما خلال الفترة الحديثة إلى حدّ فقدت هذه المجالات دورها في مراقبة المسالك التّجاريّة البريّة وتحوّل الأنشطة الاقتصاديّة الرّئيسيّة نحو السّواحل والمدن السّاحليّة. ويأتي ذلك ضمن تحوّلات ارتبطت بتوسّع النّظام الرّأسمالي الذي عمد إلى تفكيك الاقتصاد القاريّ لصالح التّجارة البحريّة التي كان يسيطر عليها بصفة كليّة[9].

وفي سياق بحثنا المتّصل بالمجال الجبليّ، وبسبب تحوّل المجالات الجبليّة إلى مجالات وعرة يصعب الاستقرار بها، يمكن الانطلاق من جبل "وسلات" الذي كان محور اهتمام المؤرّخين والأدباء والشّعراء وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا. وبالعودة الى ما ذكره الأستاذ عبد الواحد المكني حول أصل تسمية "وسلات" وهي كلمة بربريّة اشتقّ منها اسم الجبل وأهله حسب **بيليغران** (PELLEGRIN) أي وسلات وترمز إلى الحديد والصّلابة، كما ترمز أيضا إلى الشّجاعة والفتوّة. ولهذا حاول الباحث الرّبط بين أصل الكلمة وخصائص المجموعة التي اشتهرت بالقوّة والبأس والحرابة في تاريخها[10].

ولعلّ تأكيد الإخباريّين والأدباء خلال القرن الثّامن عشر على الأصول البربريّة لسكّان الجبال وتمسكهم بتقاليدهم في اللّباس والعادات ودأبهم على التكلّم بلهجة خاصّة، محاولة لتبرير وصفهم بأبشع النّعوت والهجوم عليهم واستعمال القوّة ضدّهم. وهذا ما ذهب إليه محمّد الصّغير بن يوسف بقوله: "غضب الله عليهم، ليس لهم ميثاق ولا عهد...فعليهم سخط الله إلى يوم البعثة".[11] كما أنّ سلوكهم الانتفاضي يفسّر حسب هؤلاء بنفاقهم

وشركهم وضعف إسلامهم، ويصل الأمر إلى حدّ نزع صفة الإسلام عنهم. وهكذا نجح الخطاب الرسمي في الدعوة الى مقاطعتهم وعدم التعامل معهم وعزلهم، حيث يتردد المثل لدى بعض العروش المحاذية لهم بالقول " أعْمل الخير في اللّي يُواتي وما تعْملوش في وسْلاتي". ومهما يكن من أمر لا يجب إغفال السّياسة الضّرائبيّة المعتمدة تجاه أهل الجبل أمام قلّة موارده، "فإذا دخلته وسرت في وطايه رأيت دشرا غايبة في رأس ذروة عالية لا يصعد إليها إلاّ ساكنوها، ولا يعرف سهلها ووعرها إلاّ أهالوها. وأمّا وسطه جبال وعرة لا يتمكّن على ساكنيهم سلطان"[12].

وهكذا أصبح هذا الجبل كغيره من المجالات الوعرة التي شكّلت هاجسا للسّلطة الحاكمة ومن الصّعب السّيطرة عليها وإخضاعها في نفس الوقت. كما تحوّلت إلى ملجئ للثوّار خلال فترات زمنيّة مختلفة. ولدينا أمثله عديدة لمجالات جبليّة تحولت إلى مجالات ذات رمزيّة للمقاومة والثّورة، إضافة إلى جبل "وسلات" الذي احتضن خلال الفترة المراديّة أبا قاسم الشّوك سنة 1674 ومن بعده مراد الثّالث سنة 1699 وعلي باشا سنة 1728 وأخيرا حفيده إسماعيل بن يونس سنة 1759-1762[13]. وقد احتفظت لنا الذاكرة الجمعية الى اليوم بأمثلة يرددها الوسالتيّة للتعبير عن الفخر والاعتزاز "يا جبل وسلات وسعْ بالك لا إلي جرى للحامة يجرالك".[14] وكذلك الشأن بالنسبة الى جبل "خمير" وانتفاضته سنة 1769، حيث التفّ أهالي "خمير" حول الدعيّ عثمان الحدّاد، الذي بُوغت وأُسّر بعد ذلك ثمّ قُتل[15]. وفي سنة 1844 ساندوا دعيّا آخر كان يزعم أنّه من ذريّة عثمان باي، وقد وقع هو الآخر في الأسر بالحيلة وضرب عنقه[16]. ورغم أنّ أهالي جبل "خمير" لم يشاركوا في انتفاضة سنة 1864، فإنّهم رفضوا أن يردّوا ما أخذوه من أنعام المزارع القريبة من باجة وأصرّوا على الامتناع بالقول: "رجّعنا سرح باجة لأنّ أهلها إخوتنا وهي حاضرتنا، وهذه المزارع أكثر لخدّام الدّولة، وقد فرّطنا فيما أخذناه بالبيع، والباي أعطانا أوامره المكتوبة بالأمان"[17].

كما تميّزت قبائل "مُقعد" و"هذيل" بالشّمال أيضا بشدّة المقاومة والبأس نظرا لصعوبة مجالاتها الجغرافيّة. ويعتبر جبل "الدّوارة" أنموذجا من خلال انتفاضة الهمّامة سنة 1750. وضمن هذه التحوّلات المجاليّة والسّياسيّة، تمّ تأسيس المدن في الجبال، لتكون منطلقا لعلاقة توتّر ونزاع بين القوى المحليّة التي ترغب في لعب الدّور الأكبر اقتصاديّا وسياسيّا، والحكم المركزيّ الذي يبحث عن بسط نفوذه على المجال والاستفادة القصوى من ثرواته.

2.3. واقعة "الدّوارة" وإنهاء رمزيّة القبائل المخزنيّة القويّة:

إنّ "نكبة" عروش الهمّامة ووجهائها سنة 1750 بعد واقعة "الدّوارة"، وهي واقعة عسكريّة وضع لها الباشا علي خطّة دقيقة ومتكاملة لمحاصرتهم وكسر شوكتهم. ويدلّ على ذلك العدد الكبير للجنود المشاركة والعتاد المستخدم في المعركة. كما أكّدت الواقعة حرص السّلطة على استهداف النّفوذ المحلّي والحدّ من سيادته المجاليّة المهدّدة لمصالح السلطة المركزيّة ونفوذها. خصوصا وأنّ من مميّزات منطقة قفصة والهمّامة، تداخل مظاهر الولاء للسّلطة المركزيّة ومناهضتها، فعروش الهمّامة ملتزمة باعتبارها عروش مخزّن بالدّفاع عن نظام البايات الحسينيّين من خلال القيام بعدّة مهامّ لمعاضدة عمل الحكومة. لكنّ الطّبيعة الصّعبة للمنطقة دفعت العروش المقيمة بها إلى البحث عن دخل إضافيّ عبر ممارسة أعمال الإغارة على المراكز الحضريّة والعروش المجاورة. بل التجئ السكّان أمام ثقل الجباية إلى التهرّب من أداء الضّرائب والخروج عن الطّاعة[18].

وفضلا عن كلّ ذلك تتصرّف عروش الهمّامة في حيّز ترابيّ شاسع تمرّ به أحد أهمّ الطّرقات لخزينة الدّولة، وهي طريق المحلّة نحو واحات الجريد، وقد تمكّنت من السّيطرة على هذا المجال بالقوّة. وفي سياق افتراض استمرار الغايات القديمة للبداوة ولا سيّما النّزاع والتهرّب من الخضوع والتبعيّة، وهذا السّلوك فضلا عن أنّه أحد مرتكزات البداوة، هو تكتيك تستعمله القبيلة في مواجهة إكراهات السّلطة وإملاءاتها. خصوصا وأنّ القبيلة نادرا ما كانت تحارب من أجل المحافظة على أحد فصائلها البشريّة أو عروشها في إطار نزاعات القرابة، ولكنّها كثيرا ما كانت تدخل في نزاعات دامية من أجل صدّ الهجومات على مجالها التّرابيّ[19]. ومن

مصلحة أيّ سلطة مركزيّة استمّالة هذه القبيلة حتّى تضمن المجابي المتّأتية من الجنوب وبلاد الجريد، لا سيّما إذا اتّصل الأمر بقبيلة اكتسبت طابعا محاربا وأتقن أفرادها أسلوب "الغورة" الخاطفة والسّريعة عبر تنقّلاتهم المستمرّة. وقد حتّمت عليهم قسّاوة الطّبيعة التّعويل على كفاءتهم الحربيّة لسدّ حاجيّاتهم[20]. حيث بدأ وقوف الهمّامة إلى جانب الحسينيّين مع الدّور الذي قاموا به في مطاردة علي باشا وأتباعه بعد هروبهم من جبل وسلات سنة 1729.[21]

ومن هنا تعتبر واقعة "الدّوارة" لسنة 1750م، والتي تمكّن على إثرها على باشا باي (1735. 1756م) من إخضاع قبيلة الهمّامة، ذات رمزيّة كبيرة. وجدير بالذّكر أنّ المصادر الرّسميّة، من كتابات للمؤرّخين والأدباء والشّعراء الذين عاصروا الحدث أو من أخذ عنهم، تقدّمها على أنّها أهمّ إنجاز سياسيّ وعسكريّ للباي علي باشا. حيث يقول ابن أبي الضّياف: "ومن أخبار علي باشا الدّالّة على بعد صيته، إيقاعه بالهمّامة. وذلك أنّ الهمّامة كانت طاعتهم لعلي باشا مُمْرضة، شأنهم مع سائر الملوك، لبُعد ناجعتهم"[22].

خصوصا وأنّ الباشا علي بعث إليهم الرّسل والمكاتيب لجلبهم إلى صفّه وإثنائهم عن الإغارة المتكرّرة بالمجالات التي كانوا يصلون إليها. وهذا ما أشار إليه الشّاعر أبو عبد الله محمّد الورغي في ديوانه[23] بقصيدة يصف فيها الهمّامة قائلا:

وكم من بريّ أباحـــوا رحله فـغدا	♠ وهو، من بعـــد إتراب له، تربُ
ما راقبـــوا في وليّ إلاّ خالقـــه	♠ ولا استـلانوا لمن للعلم ينتســـبُ
وأودعُـــوا همـــهم في كلّ ماهية	♠ وذلك ما دلّ عن مضمـــونه اللّقبُ
ظنّوا الدّوارة تحـــميهم، وحقّ لـــها	♠ لكنّ بعض ظنون المدّعـــي كـذبُ
وغـرّهم قول من لم يـــدر عاقـــبة	♠ إنّ الهزبر أبَا الأشبـال لا يثـــبُ
وكذّبـوا منذريـــهم حرّ صدمـــته	♠ وهم على القطع في تكذيبهم كـــذبوا
فحيـــث لم ينهـــهم ردع الأمير ولا	♠ لوت رؤوسـهم الأرسال والكـتبُ

ويصف في هذه القصيدة مراحل "الحملة" التي قادها علي باشا من الحاضرة إلى بلاد الهمّامة. ولعلّ ما يؤكّد قيمة الحدث لدى السّلطة الحاكمة ممثّلة في الباي علي باشا الاستعداد العسكريّ وتوفير اللّوجستيك اللاّزم لهذه الواقعة والتّخطيط لها وذلك عبر:

. خروج ابن متيشّة بمحلّة الأعراض، وكانت مهّمته حصر الهمّامة، لمنعهم من التوغّل في مهامه الصّحراء، وقد حشد لهم الأعراب.

. خروج الباشا للجريد في محلاّت ثلاث: محلّة بها ابنه يونس باي ومعه عسكر الرّجْل (المشاة) من التّرك ، وقد أبقاها بتوزر. ومحلّة فيها ابنه سليمان باي. ثمّ تقدم الباشا بمحلته إلى محّل يقال له "الدّوارة" ونازلهم من جهة وابنه سليمان من جهة حتّى نزلوا عن حكمه.

وبالإضافة إلى وضع خطة عسكريّة دقيقة ومتكاملة لمحاصرة الهمّامة وكسر شوكتهم. كما يدلّ العدد الكبير للجنود المشاركين في هذه المعركة على قوّة القبيلة وإمكانيّاتها العسكريّة أو أنّ الباشا علي أراد السّيطرة نهائيّا وإلى الأبد على كلّ أشكال التمرّد الذي كانت تمثّله المجالات البعيدة، وخاصّة المجالات الجبليّة التي هي مجال أهل الفساد، ليس لهم ميثاق ولا عهد، أو هي على حدّ تعبير الشّيخ محمّد الصّغير بن يوسف، عند حديثه على أهل جبل وسلات، "ولا رعيّة أسرع وأغدر من هذه الفئة، فهي دائما في النّفاق على السّلطنة"[24].

وتبعا لذلك يمكن القول إنّ واقعة "الدّوارة" كانت أكبر نكبة حلّت بالهمّامة، فعجّلت بنهايتهم كقوّة محليّة بمنطقة السّباسب، حيث "استاق سائر ما يملكونه من الإبل، وكانت ثلاثة عشر ألف بعير، وسمها كلّها بوسم الدّولة، وخضّد شوكتهم، وداس منعتهم" [25]، وتابع الباشا علي ملاحقتهم إلى أن تفرّقوا بالمجالات الجبليّة المتاخمة للجريد وصولا إلى سوف، "ولم ينجُ منه إلاّ أولاد معمّر من الهمّامة لأنهم أجفلوا وتفرّقوا في البلاد"[26]. وقد أطنب الإخباريّون والأدباء والشّعراء في وصف حالة الارتياح التي عمّت أجوار القبيلة والنّخب المدينيّة على إثر أحداث "النكبة". والجدير بالذّكر أنّ ابن أبي الضّياف يُرجع أسباب الانتفاضة إلى "عيثهم وفسادهم في الأرض، بقطع الطّريق ونهب الأموال"، أو ما عبّر عنه الشّاعر الورغي بشق العصا واستضعاف الأمر من أقصى الجريد الى ما دون صبرة[27] ، حين قال:

شقّوا العصا، وأشـادوا مجمعيــن على ♠ ما فيه نقض الهدى، يا بئس ما ارتكبوا
واستضــعفوا الأمر من أقصى الجريد إلى ♠ ما دون صــبرة لا ينهـاهم رهبُ
أعـروا من الأمْن من جاز الطّــريق بها ♠ فبات صبْــرة، فلا أهل ولا نشـب

غير أن لهذه الحركة الانفصاليّة دلالات أخرى، وهي عدم الاعتراف بشرعيّة سلطة علي باشا مقابل التزامها بشرعيّة سلطة حسين بن علي وأبنائه. ومهما يكن من أمر فإنها كانت حركة احتجاجيّة ضدّ سياسة التّضييق الجبائيّ، حاولت قبيلة الهمّامة من خلالها استعادة مكانتها داخل مجالها المحلّي والدّفاع عن امتيازاتها الجبائيّة. والأكيد أنّها عجّلت بشكل أو بآخر نهاية حكم علي باشا.

3.3. واقعة "الدّوارة" بداية النّهاية لحكم علي باشا

تتنزل واقعة "الدّوارة" ضمن الحركات الاحتجاجيّة القبليّة في إطار مجموعة من التّحوّلات الجبائيّة التي عرفتها الإيالة التّونسيّة خلال منتصف القرن الثّامن عشر. وارتبطت هذه التحوّلات بطبيعة التوجّهات الإداريّة والجبائيّة والأمنيّة خلال حكم علي باشا 1735. 1756م، الذي تميز بالشدّة والصّرامة، حيث سلك سياسة قمعيّة ضدّ خصومه الحسينيين وصادر أرزاق عدد كبير من أثرياء المدن والقبائل، كما اعتمد سياسة استغلاليّة تجاه المجموعات المحليّة.

وهكذا عمد علي باشا إلى مزيد مركزة السّلطة وسعى إلى فرض الهيمنة السّياسيّة بالدّاخل حيث تتمتّع القبائل الكبرى باستقلاليّة الحركة في مجالات ممتدّة. والحدّ من توسّع النّفوذ المحلّي ضمن استراتيجيّة تقوم أوّلا على اختراق الأحلاف القبليّة القائمة أثناء فترة أزمة الحكم المركزيّ لإضعافها وسهولة التمكّن منها عسكريّا. وثانيا اعتماد سياسة جبائيّة تقوم على التشدّد في رفع المطالب وفرض الخطايا والتغريم.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ علي باشا كان متشدّدا في معاملته للملتزمين وخصوصا أثناء محاسبتهم وقد يصل الأمر عند التّجاوزات إلى سجن عدد منهم. كما كان يلتجئ في أحيان كثيرة إلى "الوكلاء" نظرا لعدم إيفاء اللزّامة بتعهّداتهم[28]. إضافة الى دخول الإيالة مرحلة أزمة

ماليّة حادّة من ملامحها التردّي الكبير لقيمة الرّيال إلى النّصف بسبب غلث السكّة[29]، والالتجاء إلى إعادة استعمال أساليب جبائيّة قديمة على غرار تكثيف استعمال "المشْترى"، الذي يعرفه حمّودة بن عبد العزيز كما يلي: "وصورتها: أن يُعطي من جانب الدّولة مالٌ يوزّع على الفلاّحين من الرّعايا على صورة السّلم في القمح والشّعير، لكنّه يقع بثمن بخس لا يبلغ في بعض السّنين سدس القيمة ولا أقلّ منه. ويقتضي ذلك منهم زمن الاقْتضاء بعنف شديد، وأكثر ما يكون ذلك في سنة الجدب التي تقلّ فيها الحبوب والأقوات، وأدّى ذلك الى ترك الفلح! وهي من أقبح أنواع الظّلم"[30].

وحقيق بالقول إنّ تولّي علي باشا الحكم بصفة فعليّة سنة 1740[31]، ساعده على مزيد التشدّد الجبائيّ وإحكام قبضته على المجموعات القبليّة بما في ذلك القبائل الموالية للصفّ الباشي، حيث يأتي تمنّع قبيلة نفات وتحصّنها بالهمّامة هروبا من سياسة "الإرهاق الجبائيّ"، التي تعرّضت لها القبيلة منذ تولّي علي باشا الحكم، وهو الذي عمد إلى اتّخاذ إجراءات جديدة تنظّم عمل الخلاّصة وتطلق أياديهم في رفع الجباية، سواء كانوا من القيّاد ـ اللزّامة بالمدن أو خلاص غير لزّام بسائر العروش[32]. وقد رفضت قبيلة الهمّامة الانصياع إلى أوامر قايد الأعراض مصطفى بن متيشة بل تحالفت مع قبيلة نفات المجاورة لها، وهذا نتيجة سياسة التشدّد والإرهاق الجبائيّ، وضمن الرّغبة في إعادة بناء علاقات جديدة للتصدّي لمركزة السّلطة وتبعاتها. ويمكن فهم هذه الواقعة في إطار تحالفات احتجاجيّة جبائيّة، وإلى ما تفرضه علاقات التّحالف القبليّ من التزامات ومواثيق عرفيّة متوارثة تحافظ عليها المؤسّسات والهياكل الجماعيّة القبليّة[33]. فهي تتجاوز إذن مجرّد الرّوابط القبليّة الضيّقة نحو تأسيس تحالفات قبليّة موسّعة تشمل مجالات بعيدة وممتدّة. ويهدف الحلف إلى ضمان تماسك الوحدة القبليّة وتعزيز متانتها للحدّ من ضغوطات القوى القبليّة الأخرى وتجاوز الأخطار الخارجيّة المهدّدة لها. فالقبيلة الحليفة مطالبة بحماية من انتسب إليها ومعاضدة جهوده في الدّفاع عن مجاله والحفاظ على مكاسبه.

ومن الثّابت أنّ هذه الفترة أي منتصف القرن الثّامن عشر، شهدت ثورات وانتفاضات على غرار انتفاضة عسكر الانكشارية سنتي 1743 و 1752، لذلك لا نعتقد أنّ انتفاضة الهمّامة سنة 1750 كانت منفصلة عن هذا الواقع المتأزّم الذي ارتبط بحكم علي باشا وبقدرته على مسايرة ظروف ما بعد الحرب الأهليّة وإيجاد الحلول المناسبة لأزمة شاملة ميّزت الإيالة. لقد كانت انتفاضة الهمّامة التي جهّز لها علي باشا كما ذكرنا سابقا حملة قمعيّة ونكّل بها وصادر أموالها (ثلاثة ألف بعير). كما كانت الأيام الأخيرة لحكم علي باشا مضطربة جدّا، حصلت فيها انتفاضات قاد أهمّها ابنه يونس سنة 1751. وحاول الأتراك الإطاحة به في آخر عهده[34]. كما كانت علاقات علي باشا متوترة مع أتراك الجزائر منذ اعتلائه الحكم، لأنّه لم يقبل الخضوع كليّا إلى الدّاي الجزائريّ، حيث كان حريصا على استقلاليّة الإيالة. بل توقّف سنة 1745 عن دفع الإتاوة له، فجهّز داي الجزائر حملتين ضدّه، أخفقت الأولى أمام أسوار الكاف سنة 1746. ولكنّه أعاد الكرّة سنة 1756 واحتل مدينة تونس ونهبها وقتل علي باشا ونصب محلّه محمّد بن حسين بن علي (1756-1759)، وبذلك استرجع أبناء حسين بن علي عرشهم، بيد أنّهم وفي المقابل اعترفوا بسيادة داي الجزائر عليهم مستأنفين دفع الإتاوة السنويّة[35].

خاتمة:

ختاما إنّ تاريخ الجبل وأهله من القبائل مثلا، يمكن أن يتجاوز التّحقيب التّاريخيّ الذي نعتمده في دراستنا للأحداث السّياسيّة والعسكريّة، لأنّه يتصل أكثر بمدى قدرة المجموعات البشريّة التي كان لها ارتباط بالمجال الجبليّ، على الفعل الاجتماعيّ والسّياسيّ.

ومن الأكيد أنّ "نكبة" عروش الهمّامة وتفتّت مكانة وجهائها سنة 1750 من قبل الباشا علي، قد أكّدت بما لا يدع مجالا للشّك حرص السّلطة المركزيّة على استهداف النّفوذ المحلّي ونجاحها في الحد من تهديده المتكرّر لمصالح السّلطة السّياسيّة والاقتصاديّة وذلك يقتضي الحدّ من عمليّات الأحلاف القبليّة القويّة داخل مجال العروش الكبار. كما يبدو أنّ السّلطة المركزيّة قد تفطّنت إلى ضرورة فرض نفوذها على مجال الهمّامة باعتبار انفتاحه على

واحات الجريد، إضافة إلى أنّه يمثل حلقة ربط بين قبائل الأعراض بالجنوب الشّرقي وقبائل السّباسب العليا بالوسط الغربيّ.

إن راهنيّة هذا المقال محاولة الوقوف عند واقع الجهة اليوم وشعور الأهالي بالغبن الاجتماعي والحرمّان من امتيازات الدولة الوطنيّة، وهذا ما يفسر في اعتقادنا صعوبة التوصّل الى حلول جذرية الى مشاكل المنطقة التي تبقى محكومة بالعقليّة القبليّة رغم عراقة التمّدن، في ظل توفر ثروات طبيعيّة هامة.

الهوامش:

[1] ابن أبي الضياف أحمد، 1999، إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، 9 أجزاء، ج 2 ، ص 130.

[2] Saidi Mohamed , 2017, L'occupation humaine durant la Préhistoire et la Protohistoire dans la région d'Oum el Araïs, Redeyef, Tamaghza et Metlaoui, thèse de Doctorat, Faculté des sciences humaines et sociales – Tunis,p19.

وردت الخريطة بالفرنسيّة وقمنا بتعريب المعطيات الواردة بها.

[3] Zargouni Foued,1986, Tectonique de l'Atlas méridional de Tunisie, évolution géométrique et cinématique des structures en zone de cisaillement. Revue des Sciences de la terre. p111.

[4] Hamed Younes, 2009, Caractérisation hydrogéologique, hydrochimique et isotopique du système aquifère du synclinal de Moularès-Tamerza (Sud Ouest Tunisien). Thèse en Géologie, Ecole Nationale d'Ingénieurs de Sfax (ENIS)-Tunisie. p65.

[5] Saidi Mohamed , 2017, L'occupation humaine durant la Préhistoire et la Protohistoire dans la région d'Oum el Araïs, Redeyef, Tamaghza et Metlaoui, thèse de Doctorat, Faculté des sciences humaines et sociales – Tunis, p136.

[6] Ben Ouezdou Hadi, 1994,La partie méridionale des steppes tunisiennes : étude géomorphologique. Thèse de Doctorat d'Etat en Géographie physique. Tunis, pp 491-494.

[7] Saidi Mohamed , 2017, L'occupation humaine durant la Préhistoire et la Protohistoire…op.cit,p237.

[8] Carte nationale des Sites Archéologiques et des Monuments Historiques. La carte de Moularès au 1/50.000. Feuille numéro 117.Institut National du Patrimoine, Tunis 2005.

[1] الفهري عبد الحميد، 2007، " الجبل في جدلية المقدس والمدنس"، المجال والهوّية ببلاد المغرب. أعمال النّدوة الدوليّة (4-5-5 مارس 2004)، جمع وتقديم عبد الواحد المكني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس. جامعة صفاقس. ص ص 33-64. ص 54.

[10] المكني عبد الواحد، 1998، شتات أهل وسلات من 1762 حتّى بداية القرن العشرين، دار سحر للنشر. تونس. ص 24.

[11] ابن يوسف محمّدالصّغير، 1998، المشرّع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، المجلّد الأوّل، تقديم وتحقيق أحمد الطّويلي، المطبعة العصريّة، تونس، ص 80.

[12] نفس المصدر، ص 81.

[13] ابن أبي الضّياف أحمد، 1999، إتحاف أهل الزّمان.....، ج 2 ، ص ص 163-164.

[14] المقصود هنا ما حصل الى حامّة قابس مكان تركز قبيلة أولاد سعيد ذائعة الصيت خلال القرنين 16 و17. وذلك على يد الباي حمودة باشا المرادي (1631. 1666). حيث يذكر صاحب الحلل السندسيّة : " في سنة اثنتين وأربعين وألف (1042هـ / 1632- 1633م) فتحت الحامّة بعد نفاق سبع سنين، وكان أرسل مآربه بحرا، وحشد إليها من جميع البلاد، ونصب عليها المدافع، وحفر المتارس، وأمر بقطع النّخل ، فقطع منه شيء كثير، هذا بعدما أنذرهم.... فشدّد عليهم الضيق. ولم يزل يقاتلهم بالعشيّ والإبكار، الى أن مات خلق كثير من الفريقين . ووردت النّجدة من أولاد سعيد على أبناء عمّهم الذين داخل الحامة.... والحرب بينهما تتوقّد نارها وترمي شرارها. حتى أذلت لجّم المقادير جماحها، وألقت بالرّغم مفتاحها، فدخلها وأباحها، وفتح أبوابها، وكسّر رقابها، وجذّ أسبابها، ورفع بيد القهر نقابها، وقتل رجالها واستأصل أموالها، وأذاقهم من لواعج الهوان نار الحريق، وأنزلهم بما اكتسبت أيديهم دركات الذلّ الى أضيق مضيق، وبيعت أبنائهم بيع الرقيق وصبغت أردية بطحائها بدماء طغاتها صبغ العقيق، وخرّب منها المساكن، وأجلى السّاكن، وكانت واقعة مشهورة، وأخبارها على صفحات الصّحائف مسطورة ". أنظر: الوزير السراج، 1985، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ثلاثة أجزاء، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى. الجزء 2 ص 372.

[15] ابن أبي الضياف أحمد،1999، إتحاف أهل الزّمان..... ،ج 2، ص 165.

[16] نفس المصدر، ج 4، ص ص 78-79.

[17] ابن أبي الضياف أحمد،1999، إتحاف أهل الزّمان.....، ج 5، ص 136.

[18] التليلي مصطفى، 2004، منطقة قفصة والهمّامة في عهد محمّد الصّادق باي 1859-1882. دار صامد للنّشر والتّوزيع. صفاقس. تونس. ص 211.

[19] الباهي مبروك، 2005، القبيلة في تونس في العهد الحديث (ق 16 – ق 19). من بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز: السّباسب الوسطى مثالا. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس. ص 89.

[20] التّليلي مصطفى، 2004، منطقة قفصة والهمّامة.....، ص 213.

[21] ابن يوسف محمّد الصّغير، 1998، المشرّع الملكي.....، ص 210.

[22] ابن أبي الضّياف أحمد، 1999، إتحاف أهل الزّمان...، ج 2، ص 130.

[23] الورغي أبو عبد الله محمّد، 1978، "ديوان الورغي" حقّقه وقدّم له عبد العزيز القيزاني، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، ص 83.

[24] ابن يوسف محمّد الصّغير، 1998، المشرّع الملكي..... نفس المصدر، ص 106.

[25] ابن أبي الضّياف أحمد، 1999، إتحاف أهل الزّمان..... نفس المصدر، ج 2، ص 131.

[26] ابن أبي الضّياف أحمد، 1999، إتحاف أهل الزّمان..... نفس المصدر، ج 2، ص 131.

[27] نفس المصدر، ج 2، ص 131.

[28] البرهومي عثمان، 2019، الدّولة والجباية والمجتمع: اللّزم والمجال الحضريّ بإيالة تونس 1705 – 1856، مجمع الأطرش لنشر الكتاب المختص وتوزيعه، تونس. ص 50.

[29] Cherif Mohamed-Hedi ,1986, Pouvoir et Société dans la Tunisie de H'usayn Bin Ali (1705-1740), T 2 , Tunis, p 165.

[30] المشترى كما يعرفه حمودة بن عبد العزيز إذن هو: "السلمْ" الذي عرفه الفقه الإسلاميّ على أنه "بيع غلة قبل أوانها" لكن "السلم" أو المشترى كما قنّنه الفقه الإسلاميّ يخفي عمليّة ربا. انظر: بن عبد العزيز حمّودة، 1970، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، الدّار التّونسية للنّشر. ص 366.

[31] بعد أن انتهت الحرب الأهليّة، التي تواصلت لمدّة خمس سنوات من المعارك، بهزيمة حسين بن علي (حكم بين 1705 و1735)، الذي قطع رأسه يونس بن علي باشا في 13 ماي 1740، وبعث برأسه إلى علي باشا مع المأسورين من كبار أصحابه. انظر: ابن أبي الضّياف أحمد ، 1999، إتحاف أهل الزّمان..... نفس المصدر، ج 2، ص ص 114- 115.

[32] وثائق الأرشيف الوطنيّ التونسي (أ.و.ت) ، دفتر عدد 45 ، ص 4.

[33] عيسى لطفي، 2005، مغرب المتصوّفة (الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعيّ) من القرن 10م إلى القرن 17م. مركز النّشر الجامعيّ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، جامعة تونس. تونس. ص ص 314- 315.

[34] هنية عبد الحميد، 2012، تونس العثمانيّة، بناء الدولة والمجال من القرن السّادس عشر إلى منتصف القرن التّاسع عشر، تبر الزّمان، تونس. ص 181.

[35] نفس المرجع، ص 183.